معجزة الإسلام

"عمر بن عبد العزيز"

عمر بن عبد العزيز ﷺ

«الطفولة» **[إنك إذن لسعيد]**

كان أبوه «عبد العزيز بن مروان» يحكم مصر واليًا عليها من قبل أخيه الخليفة الأموى «عبد الملك بن مروان» حيث لبث «عبد العزيز» فى ولايته هذه عشرين عامًا.

وغادرت «أم عاصم» المدينة المنورة حيث كانت تقيم لاحقة بزوجها «عبد العزيز» فى مصر، مصطحبة معها ولدها الحبيب «عمر» وفى حلوان التى اكتشف عبد العزيز جمال مناخها فاتخذها منتجعًا ومستراحًا، راح الطفل المتفتح يجرى فى مرابعها، ويعبّ من هوائها، وذات يوم دخل حظيرة الخيل، فركضه جواد، فشجّه وأدماه، وحُمل الطفل الجريح إلى داره، وما كادت أمه تبصره حتى أخذها الروْع، وفجعها المشهد واستُدعى أبوه، فجاء على عجل، ورأى الدم يُغطى وجه ولده، والشجّة الفاغرة تنزف..

وقبل أن يغشاه الأسى، طوّفت بخاطره ذكرى ألقت على محياه تهلُّلاً ولما فرغ من تضميد جرح طفله الحبيب ، ربّت على كتف زوجته والبسمة تزداد على شفتيه وقال: «أبشرى يا أم عاصم!».

ثم بسط يمناه يداعب بها رأس ولده وراح يقول: «إن تكن أشجّ بنى أمية، إنك إذًا لسعيد» ..!!

فماذا كانت الذكرى التى أثارها هذا الحادث؟

وما شأن النبوءة التى أومأت إليها كلمات عبد العزيز؟ لنعد إلى الوراء كى نشهد النبأ من أوله.. فهناك فى تلك الليلة الشاتية حيث المدينة ساكنة ساجية، قد أوى الناس فيها إلى دُورهم ومضاجعهم يلتمسون الدفء من ذلك الصقيع الراعد، إلا رجلاً واحدًا أفزعته مسؤولياته، وقد كانت دائمًا تفزعه فنضا عنه غطاءه، وخرج إلى طرقات المدينة التى خلت من كل حى، ولم يبق بها سوى كتل الظلام وعُواء الريح.

خرج الرجل وحده يتعسس فلعل هناك جائعًا أو مريضًا أو مقهورًا، أو ابن سبيل.

لعل هناك شأنًا من شؤون الناس قد غاب عنه، والله سائله عنه ومحاسبه عليه..

فالرجل خليفة المسلمين وأمير المؤمنين.

أجل.. إنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه.

وطال عسسه وتطوفه حتى أدركه التعب ووخزه الصقيع فلاذ بجدار دار صغيرة فقيرة، وجلس يستريح قليلاً؛ ليستأنف خطوه فيما بعد إلى المسجد، فقد أوشك الفجر أن يجيء وإذا هو فى مُتكئه سمع حوار داخل الدار.

كان الحوار يجرى بين أم وابنتها حول ذلك القدر من اللبن الذى جاد به ضرع شاتها فى ذلك الهزيع، وكانت الأم تدعو ابنتها كى تخلط اللبن بالماء حتى يزداد ويفى ثمنه بحاجات يومها.

سمع أمير المؤمنين حوارهما.

الأم تقول لابنتها: يا بُنية، امذُقى اللبن بالماء.

والبنت تُجيب أُمها: كيف أمذق، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق؟

وتعود الأم قائلة: إن الناس يمذقون، فامذُقى، فما يدرى أمير المؤمنين بنا إن مذقنا، ولا يرانا..

وتُجيبها الفتاة: يا أماه، إن كان أمير المؤمنين لا يرانا، فرب أمير المؤمنين يرانا ودمعت عينا أمير المؤمنين بدموع الغبطة والفرح، وسارع إلى المسجد، فصلى الفجر بأصحابه، ثم عاد مسرعًا إلى داره، ودعا ابنه «عاصمًا» وأمره أن يأتيه بحقيقة أهل تلك الدار.

وعاد «عاصم» إلى أبيه بمعلومات وافية عن الأم وابنتها وقص أمير المؤمنين على ولده ما سمعه من حوار، ثم قال له وقد كان مزمعًا على الزواج:

«اذهب يا بنى فتزوجها، فما أراها إلا مباركة ولعلها تلد رجلاً يسود العرب».

وتزوج -عاصم- تلك الفتاة الفقيرة الشريفة الورعة وأنجبت له فتاة أسموها «ليلى» وكنّوها «أم عاصم»، ودرجت «أم عاصم» هذه فى شبابها التقى النقى حتى تزوجها عبد العزيز بن مروان فولدت له «عمر بن عبد العزيز».

تلك إذًا ذرية بعضها من بعض.. ولقد صدقت نبوءة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الفتاة المباركة.

بيد أن هذا الجزء من النبوءة لم يكن هو الذى دار بخلد عبد العزيز بن مروان حين قال لطفله الجريح: «إن تكن أشجّ بنى أمية، إنك إذًا لسعيد».

فللنبوءة بقية أخرى ... ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رأى ذات ليلة رؤيا نهض من نومه على أثرها يعجب ويقول: «من هذا الأشجّ من بنى أمية، من وَلد عمر يُسمى عمر، يسير بسيرة عمر.. ويملأ الأرض عدلاً..؟».

رأى «عمر» هذه الرؤيا، واستشرف ذلك الغيب قبل أن يولد حفيده «عمر بن العزيز» بقرابة أربعين عامًا!!

وانتقل ابن الخطاب ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وظلت نبوءته هذه تُدوى بين أهله وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلامة فى وجوه أبنائهم.. إلى أن جاء اليوم الذى شُج فيه وجه ابن عبد العزيز فتذكر النبوءة القديمة وقال قولته المفعمة بالرجاء والأمل: «إن تكن أشج بنى أُمية، إنك إذًا لسعيد!!»

هذه إحدى ظواهر الإرهاصات فى طفولة بطلنا وليست كل الظواهر، وهذا الإرهاص لا يتمثل فى تلك العلامة الجسمانية التى أحدثتها شجّة الوجه فحسب.. بل يتمثل فى ذلك الانتماء المزدوج للنقيضين الكبيرين.. عمر بن الخطاب وسلالته النقية الورعة، والأمويين، وسلالتهم المستهترة.. وهنا مغزى أبعد.. فكأن القدر وقد أمهل بنى أمية حين اغتصبوا الخلافة وأحالوها إلى مُلْك عضوض، قد قرر أن يجيئهم برجل منهم، يُذيع على الملإ وثائق إدانتهم، ويرد إلى دين الله حقيقته المضيئة وإلى منصب الخلافة كرامته وتُقاه..!!

وهذا الإرهاص يديره القدر بنفسه ولحسابه، دون أن يكون للطفل دخل فيه أو علم به..

أما عن الطفل فلقد رغب إلى أبيه أن يغادر مصر إلى المدينة؛ ليدرس بها ويتفقه.. والمدينة يومئذٍ منارة للعلم والصلاح، تمتلئ بالعلماء والفقهاء والعُبّاد والصالحين.

ويستجيب عبد العزيز بن مروان الذى كان من خيار بنى أُمية وبنى مروان وأكثرهم قربًا من الهدى والتقى والصلاح.. يستجيب لرغبة ولده ويرسله إلى المدينة المنورة ويعهد به إلى واحد من كبار مصلحى المدينة وفقهائها وصالحيها وهو «صالح بن كيسان» إن طفلاً كصاحبنا نشأ فى قصور الملك والنعيم يحمل لقب «سمو الأمير» وبين يديه بل ملء

يديه من مناعم الحياة ومباهج الأيام أكثر مما يشاء فما باله ينأى عن ذلك كله وينزع بكل فؤاده وهواه إلى آفاق الرجال بل إلى حكماء الرجال..؟!

إنه يطلب من أبيه أن يرسله إلى المدينة قائلاً له:

«دعنى أذهب إلى المدينة فأجلس إلى فقهائها وأتأدب بآدابهم» ثم لا يكاد ينزل بها حتى يلوذ بالشيوخ والعلماء والفقهاء ويعكف على حفظ القرآن حتى يُتم حفظه فى زمن قصير ويُقبل على العربية وآدابها وشعرها فيستوعب من ذلك كله محصولاً وفيرًا.

يقول مُعلمه «صالح بن كيسان» فقيه المدينة العظيم: «ما خبرت أحدًا الله أعظم فى صدره من هذا الغلام!!».

لقد كان مثله الأعلى «عبد الله بن عمر بن الخطاب» وهو عم والدته فهو بمثابة الجد ولقد كان الغلام يحلو له أن يدعوه بخاله.

لقد راح منذ نزل المدينة يلوذ به ويلازمه ويتلقى عنه ويتأسى به.

* * *

وفى طفولته نرى احترامًا للنفس نادر المثال.

فهو لا يتجنب اللهو المباح لأمثاله وأنداده فحسب .. بل يأخذ نفسه أخذًا وطيدًا بما لا يقدر عليه سوى أولى العزم من الرجال، إن «أناقة النفس» فضيلة بزغت فى طفولته فرأيناه يترفع عن اللعب مع الأتراب والأنداد ويقبل على مجالس الحكمة مع العلماء والفقهاء..

كما رأيناه يترفع عن الدنايا كالكذب مثلاً، ولسوف نسمعه يتحدث فيما بعد عن نفسه فيقول:

«ما كذبت منذ شددت على إزارى وعلمت أن الكذب يضر أهله» رأيناه أيضًا يتجنب لغو القول ولغو العمل والاستعانة عن الأول بالصمت المتأمل المفكر، والثانى بالجد المثابر المتزن.

وهذه الفضيلة التى أسميناها «أناقة النفس» نلتقى بها فى شبابه فنراها تتسع لتشمل أناقة المظهر.. لا باعتبارها ترفًا أو تأنقًا بل امتدادًا لفضيلة أناقة النفس.

فنراه يلبس أبهى الثياب وأغلاها، ويتعطر بأبهج عطور دنياه، ثم نراه يتأنق فى كل

شيء.. حديثه.. لفتاته.. مشيته التى انفرد بها، وشغف الشباب بمحاكاتها، وعُرفت لفرط أناقتها واختيالها بـ«المشية العمرية!!».

إن هذه النفس التواقة تدفعه لكى يُدلى فى ثقافة العصر بدلوه العظيم.. فإلى جانب ما حصَّل من علوم الدين والفقه راح يُقبِل على الشعر حافظًا وناقدًا.

إن أباه -عبد العزيز بن مروان- يموت بمصر حيث كان واليًا عليها ويدفن تحت ثراها الطيب، فيضم الخليفة «عبد الملك بن مروان» ابن أخيه إليه ويزوجه ابنته.

وعمه «عبد الملك» كان طويل الباع فى الفقه والعلم والشعر بل كان فى الفقه يُضاهى بعروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، و«عمر بن عبد العزيز» يعيش مع هذا العلاّمة تحت سقف واحد فإن نفسه التواقة تدفعه دفعًا قويًّا ليضارع هذا العم المتفوق فى الفقه وفى العلم وفى الشعر.!

إنه أسلم مواهبه لغاياتها البعيدة، كما أسلم شبابه لطيبات الحياة ونعيمها فى نطاق ما أحل الله لعباده.

إنه ليلبس من الثياب أرفهها وأنعمها ولينل من المطاعم أشهاها وأطيبها وليركب من الجياد أعلاها وأطهمها، ومن الفُرش أسخاها، ولينهل من العلم بغير حساب.

فى سن الخامسة والعشرين اختاره الخليفة الأموى -الوليد بن عبد الملك- ليكون واليًا على المدينة وحاكمها.

فكان أول ما بدأ به اختيار عشرة من أئمة العلم والورع والفضل فى المدينة، فجعلهم مجلس شوراه.

وفى أول اجتماع له بهم قال لهم: «إنى دعوتكم لأمر تُؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانًا لى على الحق أناشدكم الله إن رأيتم عدوانًا أو باطلاً إلا أبلغتمونى أمره وأرشدتمونى إلى الحق».

وراح يجعل من ولايته مثلاً عاليًا، واتسعت رقعة سلطانه فصار واليًا على الحجاز كله - مكة والمدينة والطائف وما حولها وراح الأمير الشاب ينشر بين الناس العدل والأمن وراح يذيقهم حلاوة الرحمة وسكينة النفس.

صارخًا بكلمة الحق، نائيًا بنفسه عن مظالم العهد وآثامه مُتحديًا جباريه وطغيانه وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفى الذى كان يمقته أشد المقت بسبب طغيانه وعسفه.

فأرسل «عمر» إلى «الوليد بن عبد الملك» الخليفة يومئذٍ يسأله أن يأمر الحجاج ألا يذهب إلى المدينة، ولا يمر بها.

ولقد أجاب الخليفة طلب «عمر» وكتب إلى الحجاج يستعفيه من ممره على المدينة وقال له الخليفة: «فلا عليك ألا تمر بمن يكرهك فنحّ نفسك عن المدينة».

إن تحدى الحجاج ليس أمرًا سهلاً إذ كان الحجاج يومئذٍ قوى القبضة على الكثير من مقادير الدولة ومصايرها.. وأيضًا كان له مكانة فى نفوس الخلفاء الأمويين وفى نفس «الوليد» بصفة خاصة، فالأمويون مدينون للحجاج إلى مدى بعيد ببقاء ملكهم واستمراره واتساع رقعته، وهو يعلم أيضًا أن خلفاء بنى مروان مستعدون أن يضحوا بكل عزيز فى سبيل الحجاج، ماداموا لا يزالون بحاجة إلى بطشه ودهائه.

نرجع إلى الحجاج إنه لن ينسى مقت «عمر بن عبد العزيز» له ولا تشهيره به، وها نحن نراه ينتهز فرصة إيوائه بعض المعارضين لمظالم العهد، فينسج مؤامراته ووشاياته مُوغرًا صدر الخليفة على ابن عمه وزوج أخته، ووالية على الحجاز لقد أرسل الحجاج إلى الخليفة «الوليد بن عبد الملك» يشكو إليه استقبال «عمر بن العزيز» وإيواء كل الذين يطلبهم الحجاج ليحاكمهم على مؤامراتهم ضد الأمويين.. ولقد كان السبيل ممهدًا لوشاية الحجاج، وربما لأية وشاية تريد النيل من «عمر» ذلك أن منهجه العام كان من السموّ بحيث لا يطيق الآخرون من بنى مروان محاكاته، ولعل وشاية الحجاج كانت ستبُوء بالخذلان لو أن «عمر» اصطنع قليلًا من المسايرة واللين فى ضحدها، وهكذا لم يكن الخليفة يرسل إليه متسائلًا عن دعوى الحجاج، حتى كتب له «عمر» ردًّا يفيض بأسًا وصرامةً.

فقد راح يحدثه عن العدل الغائب والظلم المخيم.. ويُدمدم عليه بالمظالم البشعة التى يقترفها الحجاج وأشباهه تحت ستار استبقاء السلطان لبنى أمية.. وراح يصارحه ثم قال قولته الصادعة الرائعة:

«لو جاءت كل أمة بخطاياها يوم القيامة .. وجئنا نحن بالحجاج وحده لرجحناها جميعًا!!».

ورأى «الوليد بن عبد الملك» نفسه أمام كفاية خُلقية قادرة على تحديه، بل إهانته، فأصدر أمره بعزل «عمر» عن ولاية المدينة والحجاز، وغادر البطل المدينة التى لم يُحب فى

الدنيا بلدًا قدر حبه لها، غادرها إلى الشام، بعد أن لبث فى ولايتها ستة أعوام؛ ملأ البلاد خلالها عُمرانًا وأمنًا، وملأ الناس رخاء وبهجة .....! وفور رجوعه إلى الشام ورأى جيش الدولة يتحرك للقاء جيش الإمبراطورية الرومانية الشرقية التى كانت دائبة التحرش بالدولة المسلمة والشغب على حدودها، فحمل سلاحه ونيته الصالحة وأخذ مكانه بين المقاتلين جنديًا يرجو ظفر المؤمنين أو عُقبى الشهداء الصالحين...

ويعود من الحرب فيعكف على نفسه فى محراب الفضيلة والتُّقى ويُؤثر صحبة الأخيار أمثال: «رجاء بن حَيْوة»، كما راح يراسل إمام عصره «الحسن البصري» ويتعلم منه، ويحاول السير على دربه...

وراح يدير خواطره على أخطاء الدولة، ولكن ماذا يصنع وليس له من الأمر شيء .. إن كل ما يستطيعه أن يرفع صوته عاليًا ضد الفساد والظلم، وكانت له بعض العبارات اللافحة التى يقذف بها فى وجه البيت الأموى الحاكم، من تلك العبارات قوله: «الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن وعثمان بن حيان بالحجاز، وقُرة بن شريك بمصر، ويزيد بن أبى مسلم بالمغرب..؟ .. امتلأ الأرض والله جورًا!!!».

ويموت الوليد بن عبد الملك ... ويخلفه أخوه «سليمان بن عبد الملك» وعلى الرغم مما يكنّه «سليمان» لـ عمر بن عبد العزيز من إجلال ومحبة فقد خافه واليًا .. ومن ثَمَّ آثر استبقاءه أخًا وصديقًا، وإن زاد فناصحًا..!!

وراح «عمر» يردد: «بل أعجب بمن عرف الله فعصاه ... وعرف الشيطان فاتبعه، وعرف الدنيا فركن إليها»؟!! وعلى هذه الوتيرة راح عمر يُلقى نُذُره محاولاً أن يفتح الأعين العُمى والآذان الصم.

التركة القاتلة «انْج سعد .. فقد هلك سعيد»

إن منهج المروانيين فى القسوة والبطش يبدو واضحًا باصطناعهم الحجاج ونُظراء الحجاج.

فقد ولاه عبد الملك بن مروان على مكة والمدينة واليمامة، ثم نقله إلى العراق. وما إن وضع قدمه فوق أرضه حتى يخطب فى أهله خطبته المشهورة: «إنى لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافُها، وإنى لصاحبها، ولكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللُّحى قد شمرت عن ساقها تشميرًا، وقسمًا بالله لآخذن الولى بذنب مولاه، والمقيم بذنب الظاعن، والمطيع بذنب العاصى، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول له: انج سعد .. فقد هلك سعيد!!!».

هذا هو الوصف الصحيح للتركة القاتلة التى سيخلِّفها بنو مروان للرجل الصالح «عمر بن عبد العزيز».

القتل، القتل حتى تمتلئ الأرض أشلاء ودماء .. هذا عن القسوة فأما الفساد فقد عم كل شيء فى الدولة، وفى الأمة .. خربت الذمم، فراح كل قادر على النهب ينتهب ما تصل إليه يداه وغابت الأخلاق، فشاع الترف والانحلال.

ووراء الفساد سار الخراب، فأخذت الأزمات المالية بخناق الدولة ومُحِق إنتاجها.

ولقد واكب هذه القسوة وهذا الفساد تزييف كامل لقيم الدين وقيم الحياة.

على أن هذا التزييف للحق وللحقيقة، قام على أكتاف الشعر والشعراء الذين تولّوا كِبرْه، واحتملوا وزره.

* * *

البُشرى «والله لأعقدن عقدًا لا يكون للشيطان نصيب فيه»

نعود من جديد للرجل الصالح «عمر بن عبد العزيز» لنصاحب الجهد الخارق الذى سيكون على البطل أن يبذله حتى يجعل من الظلمات نورًا هاهى ذا الخلافة تقترب منه، ولكنه ليس له فيها مطمع؛ مرض «سليمان بن عبد الملك» وشعر أنه مرض الموت، وشغله أمر الخلافة، وتفرس وجوه بنيه فألفهم صغارًا.

وكان من عادة خلفاء بنى أمية إيثار أولادهم بالاستخلاف فعل ذلك معاوية حين جعل الحكم لابنه يزيد.... وفعله يزيد حين استخلف ولده معاوية الثانى.. ثم فعله مروان بن الحكم حين استخلف ولده عبد الملك فعله عبد الملك حين نحّى أخاه عبد العزيز وأخذ البيعة لولده «الوليد» كذلك لم يكن «عمر» يريد الخلافة إذ كانت بما تورط فيه، قد صارت عبئًا مبهظًا على كل ذى تُقى وضمير.

كان يعلم بخطر السلطة والإمارة وكان يتذكر قول رسول الله ﷺ: «إنها نعمت المرضعة، وبئست الفاطمة».

وقوله عليه الصلاة والسلام:

«إنها فى الدنيا إمارة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها!!».

نعود إلى «سليمان» الذى مرض ... ويشير عليه العالم الجليل «رجاء بن حيوة» وكان من علماء التابعين وفُضلائهم، وكان موضع ثقة الخلفاء الأمويين، وعاش معهم دون أن يفقد فضائل نفسه .. فهو شخصية جليلة لا نملك ونحن نتحدث عن أمير المؤمنين «عمر بن عبد العزيز» إلا أن ننحنى له تحية وتقديرًا فلقد اختارته المقادير كما سنرى فيما بعد؛ ليكون السبب فى إفضاء الخلافة «لابن عبد العزيز» حيث سترى الدنيا منه معجزة الحاكم الورع العادل الطهور..!!

فسلام الله ورحمته عليك يا رجاء..

* * *

لقد أخذ «سليمان» بمشورة «رجاء بن حيوة» فقد قال له: «إن مما يحفظك فى قبرك، ويشفع لك فى أخراك، أن تستخلف على المسلمين رجلاً صالحًا».

قال سليمان: ومن عساه يكون؟.

وأجاب «رجاء»: «عمر بن عبد العزيز!!».

وتلقّى «سليمان» مشورة «رجاء» كالبُشرى، فقد صادفت هوى نفسه بل صادفت عزمًا كان يضمره ويُخفيه..

وهتف «سليمان» بعبارته المأثورة الباهرة: «والله لأعقدن لهم عقدًا لا يكون للشيطان فيه نصيب» وسارع «رجاء بن حيوة» لإنجاز الخطة.. وكتب مع سليمان وصيته:

«بسم الله الرحمن الرحيم..

هذا كتاب من عبد الله «سليمان بن عبد الملك» أمير المؤمنين، لعمر بن عبد العزيز..

إنى قد وليته الخلافة من بعدى .. ومن بعده .. يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله..

ولا تختلفوا فيُطمع فيكم..».

وهكذا تمت الخطوة الأولى نحو استخلاف «عمر» وسارع «رجاء» فدعا الأمراء الأمويين واحتشدوا حول الخليفة فأمرهم «سليمان» أن يبايعوا من استخلفه واستودع الوثيقة اسمه .. وحاول بعضهم أن يعرف قبل أن يبايع لمن أوصى الخليفة.. فزجره «سليمان» فبايعوا جميعًا..

* * *

المعجزة

لقد جاء إلى الحياة هذا الرجل العظيم، والزائر الجليل، فى رحلة سريعة لن تلبث إلا عامين وخمسة أشهر وبضعة أيام..!!! ذلك هو معجزة الإسلام «عمر بن عبد العزيز!!» .

الذى حاول نقل عصر الوحى بمُثله وفضائله إلى دنيا مائجة مفتونة، مضطربة، متلفعة بالظلم والقهر.

فهل ندهش ونذهل؛ لأنه بمفرده حاول تحقيق هذا المستحيل أم ندهش ونذهل لأنه بمفرده حقق المستحيل فعلاً.. وجعل من المُلك العضوض الذى شاده الأمويون عبر ستين عامًا جعله خلافة أوابة، عادلة، بارة، تمثل كل فضائل وشمائل عصر النبوة والوحي؟.

وذلك فى عامين وخمسة أشهر وبضعة أيام!!

لقد شغل الناس والتاريخ وبهرهما بذلك الانقلاب الروحى فعلى الرغم من أنه كان قبل استخلافه، وطول سنى عمره طاهرًا، صالحًا، فاضلاً، فإن ذلك كله لا يبدو شيئًا مذكورًا أمام حياته ومسلكه بعد القفزة المجيدة والمباغتة التى حدث خلالها أعظم وأندر انقلاب روحى شهدناه فى كل بنى الإنسان!! ويزيد الأمر عجبًا أن هذا الانقلاب الروحى المعجز جاء فى الدقائق بل فى اللحظات التى هُتف فيها باسمه خليفة وحاكمًا لأعظم إمبراطوريات عصره وعالمه.

الرجل الذى كان قبل دقائق استخلاف يُضمخ ثيابه بأغلى العطور ويسكن أعلى القصور، ويلبس أبهى الحلل، ويأكل أطيب الطعام ويركب الصافنات الجياد، ويبلغ دخله السنوى أربعين ألف دينار، هذا الرجل ذاته يصير بعد دقائق لا أيام ولا ساعات إنسانًا آخر، عطره عرقه .. وجياده قدماه.. ولبسه من أخشن الثياب، ومطعمه من أجشب الطعام، ودخله لا شيء، لقد حُملت ثروته إلى بيت المال.. وقصوره الفارهة تحول عنها إلى دار متواضعة من الطين.

وعرشه حصير قديم يجلس عليه فوق التراب ..!!

ويزيد الأمر روعة وجلالاً أن بطل هذا الانقلاب الروحى المثير لم يكن من أوساط الناس .. بل هو ربيب الملك والقصور والأمجاد والنعيم.

كذلك لم يكن ساعة هذه الوثبة الروحية الهائلة شيخًا هرمًا، فى سن الستين أو السبعين.. بل كان فى رائعة شبابه ورجولته فى سن الخامسة والثلاثين..!!

إن مسؤولية الحكم نقلته فى لحظات إلى قديس لا نظير له بين جميع القديسين ..!!

وإنى لا أقصد «قديس صومعة» بل قديس صولجان وسلطان.

* * *

مات الخليفة سليمان بن عبد الملك ولما علم بذلك «عمر» سار إلى الخليفة المسجّى، فصلى عليه، وشيعوه إلى مثواه.. وعاد يُعزى أهل بيته فيه، ويتلقى العزاء.. وقد علم من «رجاء» بنبإ الخلافة .. وفى الغداة كان النبأ قد طار إلى كثير من بلاد الشام حيث سارع خلق كثيرون إلى «دابق» .. دخل أمير المؤمنين المسجد وهو غاصٌّ بحشود هائلة من الوافدين، فرأى أنها فرصة للخلاص من المنصب قبل أن يتشبث بكاهله.

وفجأة صعد المنبر وخطب الناس.

«... أما بعد: أُبتليت بهذا الأمر على غير رأى منى فيه وعلى غير مشورة من المسلمين..

وإنى أخلع بيعة من بايعنى فاختاروا لأنفسكم..!!».

ولعله قدر أن المفاجأة ستذهل الناس فتعقد ألسنتهم على الكلام ولو لحظات يستطيع هو خلالها أن ينجو بنفسه، مبررًا صمتهم بقبول التنازل..! بيد أنه لم يكد يفرغ من نطق هذه العبارة: «فاختاروا لأنفسكم» حتى كان المسجد يهتز بدمدمة رهيبة.

«.... بل إياك نختار يا أمير المؤمنين ..!!»

وعلى هذا فهو الآن أمير المؤمنين ولا يمكن أن يتخلى عن مسؤوليته.

* * *

من أول لحظة ها هو ذا لا يكاد يستقر به المقام فى مجلس العزاء حتى يطلب إلى مولاه «مُزاحم» أن يسارع إليه بقرطاس وقلم ودواة..

ويقترب منه «رجاء بن حيْوة» وقد رأى جسده ينتفض كأن به رعدة مرض ثقيل،

وينصحه بإرجاء ما يريد إنجازه الآن إلى غد حتى يستريح .. لكنه يُجيبه، ودموعه تنثال من مآقيه.

«.. لقد فعلتها يا رجاء .. – أي: أن رجاء أشار على الخليفة باستخلافه – فدعنى أستنقذ نفسى من عذاب يوم عظيم!!»

إنها المسؤولية الموصولة بالله.

أجل.. إنها لن تدعه ينعم، ولن تتركه ينام..!!

ويجيء «مُزاحم» بالقرطاس وبالقلم وبالدواة ويروح على عجل يكتب.

* إلى مسلمة بن عبد الملك؛ ليعود بجيشه من القسطنطينية..

* إلى يزيد بن أبى مسلم، يخبره بعزله عن أفريقيا، ويدعوه ليقدم حسابه.

* إلى أسامة التنوخى، يخبره بعزله عن خراج مصر ويدعوه ليقدم حسابه.

وأمر أن تُحمل الكتب فورًا إلى أصحابها.

فأما مسلمة، فقد كان على رأس جيش كبير يُحاصر القسطنطينية، وكاد الحصار أن يؤتى أكله ويفتح أبواب العاصمة، لولا خدعة ورّطه فيها القائد الرومانى فردّت القوة عجزًا، والنصر هزيمة.. وعلى الرغم من ضياع الفرصة وانقطاع التموين وتفشى المرض والمجاعة فى الجيش، فإن الخليفة السابق «سليمان» رفض أن يُصدر أمره للجيش بالعودة، ربما تحت وطأة كبريائه الشخصى والقومى، وربما أملاً فى تحسن ظروفه وإمداده بقوات جديدة .. وهكذا تُرك الجيش المتداعى فريسة للضياع..

ولقد كان –عمر بن عبد العزيز– قبل استخلافه يتميز غيظًا من هذا الموقف ويُلح على الخليفة باستدعائه ولكن لا رأى لمن لا يُطاع.

* وأما الثانية، وهى عزل أسامة عن خراج مصر، فقد كان أسامة هذا كما يصفه ابن الحكم غاشمًا، ظلومًا، مسرفًا فى العقوبات بغير ما أنزل الله، يقطع الأيدى، ويملأ أجواف الدواب بأشلاء ضحاياه.

والآن وقد صار الأمر إليه، فإنه لا يدعه فى مقامه لحظة.

أما عزل «يزيد» عن أفريقية فقد كان هو الآخر طاغية مُتجبرًا، يُعامل الناس بوحشية مسعورة.

هكذا بدأ الخليفة عهده.. بالتغيير السريع الحاسم.

بنفس السرعة والشمول اللذين تم بهما الانقلاب الروحى داخل وجدانه وضميره.

* * *

والآن لننظر مرة أخرى!!

ها هو ذا فى اليوم التالى يتهيأ آخذًا طريقه إلى السرادق الذى جرت العادة بإقامته حيث يجرى فيه أول لقاء بين الخليفة الجديد وصفوة قومه، ولا يكاد يضع قدميه على الطريق، حتى يرى موكبًا فخمًا من الجياد المطهّمة، يتوسطها فرس زُينت كالعروس؛ ليمتطى الخليفة ظهرها الباذخ.

وفجأة تأخذه الرجفة، ويسأل مستنكرًا.

ما هذه؟

فيجيبونه: هذه جياد لم تركب قط، تُعد لموكب خليفة جديد، فينادي: يا مُزاحم .. ضُم هذه إلى بيت المال!!

ويمضى على قدميه حتى يبلغ السرادق فإذا هو فتنة ولا كإيوان كسرى، فتعاوده الرجفة، ويسأل:

ما هذا.. ؟

فيجيبونه: إنه السرادق الذى يُعد لاستقبال الخليفة الجديد فينادي: يا مُزاحم .. ضم هذا إلى بيت المال!!

ويدعو بحصير فيفرش على الأرض، ثم يجلس فوقه فى غبطة تقى، ثم يُجاء بالأردية المزركشة، والطيلسانات الفاخرة، فيسأل ما هذه؟

فيقولون: إنها ثياب الخلافة يتحلى بها كل خليفة جديد .. فينادي: يا مُزاحم .. وهذه أيضًا ضمها إلى بيت المال!!

ثم تُعرض عليه الجوارى ليختار منهن وصيفات قصره..

وهنا ينهض فزعًا ويقبل عليهن واحدة واحدة.

من أنت..؟ ولمن كنت..؟ وما بلدك..؟

حتى إذا فرغ من سؤالهن جميعًا، نادى:

يا مُزاحم.. تولّ أمرهن جميعًا وارجع كل واحدة منهن إلى أرضها وذويها.

* * *

بعد قليل ينتقل أمير المؤمنين إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية وأحيانًا إلى خُناصرة ليباشر مسؤوليات الدولة..

أما المعجزات التى ستشهدها أيامه المباركة، سنراها ثمرة لأمرين التزم بهما فى إخبات شديد:

أولهما: الولاء المطلق للأمة..

يُدثّر هذا الولاء وذاك خوف بالغ من الله.

* * *

المنهج

- أولاً:

إنه يرى أن هذا الثراء الفاحش الذى يمتلكه أمراء بنى مروان -وهو معهم- لم يبلغوه بعرق الجبين.. وما هذه الثروة المتمركزة فى أيدى حفنات من الأمراء والسادات، إلا حقوق الملايين، وأقواتها سُلبت منها بغير حقٍّ، وبغير سلطان..!!

ومن فوره، اتخذ قراره الحاسم بإلغاء كافة مخصصات الأمراء ومخصصات حرسهم وخدمهم، وقراره بنزع الإقطاعيات الزراعية منهم جميعًا وردّها إلى بيت المال.

وبدأ بنفسه، فتخلى عن جميع أملاكه وأمواله!! حتى أرض «فَدَك» فى خيبر وكانت خير ممتلكاته وأثمنها. ولم يكن أحد أقطعه إياها بل ورثها عن أبيه.. تخلى عن هذه الأرض وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمها لملكية الدولة..

لقد اكتفى من دنياه كلها بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بُحرِّ ماله ولم تكن تُدرّ أكثر من مائتى دينار فى العام، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة.

وتنازل عن راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين .. بل لقد جمع ثيابه وحُلله الرافهة، وحُلل زوجته وأولاده.. إلى بيت المال!!

ويعود الخليفة ليضع كلتا عيناه على الولاة، والقضاة، والأمناء على الأموال العامة وراح يختارهم بحرص من يختار عاقبته ومصيره وسارع فعزل الولاة السابقين الذين عملوا فى خدمة المظالم السابقة، ثم ولّى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة.

وكان أول ما أوصاهم به هذه الوصاية الجامعة الرائعة: «كونوا فى العدل والإصلاح والإحسان بقدر ما كانوا مَن قبلكم فى الظلم والفجور والعدوان!!».

- ثانيًا: الشورى:

وهى المحور الثانى من محاور منهج الحاكم التقى.

لقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لا يخافون فى الله لومة لائم والذين لا يزيّفون اقتناعهم ولا يلبسون الحق بالباطل وإن قُطعت منهم الرقاب..

لقد آمن بأن الشورى ضرورة وليست ترفًا.. وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها استقام الحكم وشاع الحق، واستوثق العدل وراح يضع الحاكمين والمحكومين وجهًا لوجه أمام مسؤولياتهما المشتركة فراح يكتب للناس فى شتى الأقاليم قائلاً:

«أى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم.. وقد صيرت أمره إليكم، حتى يراجع الحق وهو زميم..».

ويرسل إلى أحد ولاته قائلاً:

«قد كثر شاكوك .. وقلَّ شاكروك .. فإما اعتدلت، وإما اعتزلت!!».

ولقد وقف يخطب الناس فقال:

«من أراد أن يصحبنا، فليصحبنا بخمس، أو فليفارقنا.

* يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها..
* ويُعيننا على الخير بجهده ..
* ويدلنا على ما لا نهتدى إليه من الخير..
* ولا يغتاب عندنا أحدًا..
* ولا يعرض لما لا يعنيه..».

ومن الطريف أن جميع كتب التاريخ التى تنقل هذا الخطاب تتبعه بقولها: فانفض عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الزهاد والفقهاء!!!

أجل.. فمعظم شعراء عصره وعلى رأسهم الأخطل، والفرزدق، وجرير، لم يكن لهم مع هذه الخمس رحم ولا قرابة..!!

فهم إما مادحون بغير حقٍّ.. وإما هاجون بغير حقٍّ أيضًا وهكذا جمع عزمه، وطرد الشعراء عن بابه ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمة.

- ثالثًا: المال وديعة:

لقد أرسى لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس.. ونعود إلى موقفه من «مشكلة الدخل والتوزيع».

قلنا: إن الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء.. إنما كان ينقصها تقصّى الحق فى جمعه .. والعدل فى توزيعه.

إنا لنكاد ننهل أمام ذلك الإجماع التاريخى الذى يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء فى عهد التقى الورع «عمر بن عبد العزيز» حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيرًا يأخذها.

- رابعًا: وحدة الأمة وسلامتها:

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعًا ممزقًا يتربص بعضه ببعض الدوائر؛ فخلفاء بنى أمية كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصبية والقبلية والإقليمية، فيختص أحدهم بعطفه على أهل اليمامة.. ويميز أحدهم أهل الشام.. وآخر أهل العراق.. وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة إلى القبائل وزعمائها فظهر من ينادى بأهل الحضر – وفى مواجهتهم ظهر من ينادى بسيادة أهل البادية.

كذلك كان هناك الفرق الكثيرة من شيعة، وخوارج، ومعتزلة منهم من يحمل السلاح فى وجه الدولة وفى وجه خصومه فى الرأى، ومنهم من يحمل الكلمة المسمومة.

ورث «التقي» المجتمع على هذا التمزق والتشتت، فنفخ فيه من روحه الطاهرة الظافرة نفخة مباركة نفت عنه فى لحظة كل هذه الخبائث وطهرت –لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب، بل ضميره وروحه أيضًا.. فشهد مجتمع الإسلام فى أيامه إخاء وثيق التراحم .. وأخذ كلٌّ حقه.. وقنع كلٌّ بحقه..!!

فأما الخوارج فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان وأما الموالى، فقد وضع عنهم إصرهم، وصحح وضعهم.

وأما النزعة القبلية والإقليمية، فقد طواها بيمينه ولقد وجدنا موقفه من المسيحيين عامة موقف الحارس الأمين لحقوقهم ولعهودهم ولكرامتهم.

لقد أثار موقفه من الأديان انبهار وإعجاب العالم الخارجى من حوله حتى إمبراطور الروم، وقد كان خصمًا عنيدًا لدولة الإسلام، لا يكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكى بكاءًا أذهل حاشيته وقال فى تأبينه: «مات والله ملك عادل، ليس لعدله مثيل..!!».

نعود إلى وحدة الأمة والسلام الخارجي

لقد وضع أوزار الحرب فى الساعات الأولى من خلافته فقد أصدر أمره للجيش الذى

أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة، ثم رأيناه يفتدى جميع الأسرى على كثرتهم ويردهم إلى ديارهم ووطنهم ثم يضع حدًّا لكل الأعمال العسكرية، ويعلن أن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال إلا دفاعًا عن حدود الدولة إذا هوجمت وعن سلامة الأمة إذا تعرضت لأخطار.

واستعاض عن زحف الجيوش بكتبه التى أرسلها إلى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها يدعوهم إلى الإسلام.

فأسلم أكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى إليهم من أنباء ورعه وزهده وعظمته وتُقاه..

كذلك كتب إلى البربر فى إفريقية يدعوهم إلى الإسلام فدخلوا فيه أفواجًا.

وكتب إلى ملوك ما وراء النهر فأسلم أكثرهم ورفعوا راية الإسلام.

- خامسًا: أسلوبه فى التنفيذ:

له أسلوب فريد فى إنجاز هذه المسؤولية وتنفيذ منهجها فاللين والحزم.. والأناة والحسم..كل هذا مجتمع لا مختلط فى تكامل عجيب.

الرحيل

لقد مرت الشهور التسعة والعشرون على الجموع كأنها حلم سعيد ولكن كانت كل دقيقة منها كابوسًا مرهقًا للأمراء والسادة وذوى الامتيازات الظالمة.

هنالك ائتمروا به، ودسوا له السم فى الطعام..!!

واشتد به المرض..

وتحولت الملايين من أبناء الأمة إلى أطفال، يوشك اليُتم أن يحيق بهم حين يفقدون أباهم.

كل الناس فى شعبه وأمته سحقتهم أنباء مرضه الداهم.

بل خارج أمته فى الدنيا التى حوله والتى كانت سيرته تفوح فيها كالعبير، تولاها الجزع والذهول..

حتى إمبراطور الروم العدو اللدود لدولة العرب والإسلام يرسل كبير أساقفته - وكان بالطب خبيرًا- ويرجوه أن يصنع المستحيل لإنقاذ حياة الجار الطيب والخليفة العادل والتقى الجليل.

لكن التقى الجليل رفض كل علاج وكل طب، وها هو ذا، راقد فى داره المتواضعة فوق حصيره المعهود.

وطلب أولاده فجاؤوا مسرعين .. اثنى عشر ولدًا وبنتًا، شُعثًا غبرًا وجلسوا يحيطون به، وراح يعانقهم بنظراته الحانية الآسية وراح يودع أبناءه وأحباءه.

«يا بَنى.. إن أباكم خُير بين أمرين..

* أن تستغنوا، ويدخل النار..

* أو تفتقروا، ويدخل الجنة..

فاختار الجنة..

وآثر أن يترككم لله الذى نزّل الكتاب، وهو يتولى الصالحين!!»

ثم برق بصره والتمع مُحياه، وصوّب حدقتيه تجاه الباب فى اهتمام خفى، كأنما أبصر ضيوفًا أعزاء..

ثم ابتسم لأبنائه، ولأُمهم العظيمة وزوجته الوفية وأذِن لهم بالانصراف.

وبينما هم منصرفون عنه، كان يحرك كفيه ويشير بها إشارة من يُحيى ضيوفًا قادمين!!

أجل، لقد كانت بعثة شرف من الملائكة المقربين، جاءت تصحب التقى إلى حفل تتويجه المعدّ له هناك فى جنات الخلد وفردوس الله..!!!

وسمعه الذين وقفوا خارج حجرته يردد الآية الكريمة: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وجاء مستشاره العظيم وصديقه الحميم «رجاء بن حَيْوة» يسعى وألقى بنفسه إلى جواره، وهمس فى سمعه.

كيف تجدك يا أمير المؤمنين..؟؟

لكن أمير المؤمنين يسترسل فى تلاوة الآية الجليلة الكريمة.

﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

* * *

وفجأة مال رأسه الذى طالما أثقلته هموم أمته إلى وراء..

مال ليستقر فوق وسادة حشوها ليف..!!

وأغمضت عيناه اللتان لم تغمضا قط عن حق لله.. ولا عن حق للناس..!!

وعاد المسافر إلى وطنه.. وآب إلى داره

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا!!

* * *

الختام

.. والآن ونحن نودع أولئك الرجال الذين عشنا معهم على صفحات الكتاب أوقاتًا مُفعمة بالغبطة والسعادة .. نسجد لله شاكرين أنعُمه .. راجين المزيد من نعمته، ورحمته وعافيته.

وفى خشوع وإجلال نقول للمعلم العظيم خاتم المرسلين: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، وجزاك الله عما أعطيت، وهديت خير الجزاء وفى شوق مُتجدد نقول لأصحابه المباركين أيها الأبرار: وداعًا ..!!

ولكن .. متى غابوا حتى يُقال لهم وداعًا؟؟ فلتكن تحيتنا لهم: سلام .. سلام.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

* * *